

التفسير الحرفي للكتاب المقدس ومأساة فلسطين

الأستاذ بشار بكور

يقول القسيس الكاثوليكي السويسري هانز كنغ: "لا سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان."

نعم، وأزيد فأقول: لا سلام بين الأديان ما لم يكف أتباع الأديان عن استخدام أديانهم لمصلحتهم، وعن لي أعناق نصوص الأديان المقدسة لتحقيق مآربهم، وإنجاز مخططاتهم.

لا شك أن الدين كان وما يزال قوة نقّادة، بعيدة العور، عميقة الأثر، تضرب بجذورها عميقاً في نفوس أتباعها ومعتنقيها. وإن للأديان لقدرة عجيبة في صوغ نفوس المؤمنين بها، وتوجيهها حيث شاءت. فأنت تسأل ذاك الذي يتبرع بماله كله أو جلّه: ما الذي يدفعك إلى التخلي عن ثروة أنفقت فيها عمرك ووقتك في جمعها وتحصيلها، وما أنت في لحظة تبددها هنا وهناك؟ فيجيبك بلسان اليقين الذي لا يعترضه شك: أتبعي الأجر من الله، وأنقل هذا المال إلى الآخرة لأجده هناك. وتساءل إنساناً آخر على وشك التضحية بنفسه: لم تضح بنفسك، وهي أغلى ما في الوجود؟ فيجيبك إجابة الواثق الموقن: والله إن ديني لأغلى منها.

هذا هو شأن الدين مع أبنائه، وهذه هي هيمنتته على نفوسهم وأفئدتهم. لكن الدين-يا للأسف- سلاح ذو حدين، فكما أنه يقود صاحبه إلى خير عميم، وسعادة غامرة، ونشوة بهيجة، فمن الممكن-عندما يساء فهمه وتغصب ألفاظه وتحرف معانيه وتختطفه السياسة- أن يستحيل إلى أداة مدمرة، لا تقل ضحاياها عن ضحايا القنابل والمدافع. وإن خير مثال على ما ذكرته هو المآسي التي تجرع مرارتها-وما يزالون- إخواننا في فلسطين منذ أكثر من نصف قرن. إن أناساً هجرُوا، وآخرين قتلوا، وبراء سُجنوا، وأطفالاً يُتّموا، ومنازل دُمّرت، وحرارات برمتها أُخليت، ونساء رُمّلت، كل ذلك وأزيد ارتكب باسم الدين، وصدقه الرب لا بل باركه لا بل أمر به، هذا والله عجبٌ وفوق العجب!

قدماً أراد الأصوليون اليهود- وكذلك أراد إخوانهم من اليمين المسيحي في أمريكا- أن يكون لهم موطىء قدم ثم منزل ثم مدينة ثم دولة في فلسطين، وأرادوا أيضاً أن يبنوا هذه الدولة على أساس ديني، مستقى من الكتاب المقدس، ليكون غطاءً لاهوتياً، يسوغ تصرفاتهم

الإجرامية في أرض فلسطين وشعبها. وقد تمّ لهم -وا أسفاه- ما أرادوا واتّسق لهم ما أمّلوا، حيث طوّعوا نصوص الكتاب المقدس لغايات رسموها، وأهداف نصبوها، فاقترحوا هذه النصوص من بَوّابة التفسير الحرفي والنبوءات، وألبسوها لبوساً صنعوه بأنفسهم لأنفسهم. وقد بنى الأصوليون اليهود والصهاينة المسيحيون على هذا التفسير والتنبؤ بأحداث مستقبلية عدداً من الاعتقادات التي روجوا لها ونشروها بين أمم الأرض، وضللوا بها عامة الناس وأقنعوهم بطريقة أو بأخرى أنها حقائق لا مريّة فيها، ولا تقدح فيها الطنّة بحال. وها هي بعض تلك الاعتقادات:

- اليهود شعب الله المختار. يقول الحاخام كوهين: 'يمكن تقسيم سكان العالم إلى قسمين: إسرائيل من جهة، والأمم الأخرى مجتمعة من جهة أخرى. فإسرائيل هي الشعب المختار. وهذه عقيدة أساسية'.¹
- القدس (مدينة داود) وجبل صهيون. وتعبير آخر (المدينة على الجبل) وهو من النصوص المقدسة التي تشير إلى القدس، وبوجه خاص القدس الجديدة على تلة صهيون التي سوف يحكم منها المسيح مملكته الألفية الأرضية، ومنها سوف ينتشر النور إلى أرجاء الدنيا كلّها.²
- إعادة بناء هيكل سليمان. ولتحقيق ذلك، لا بدّ من هدم المسجد الأقصى.³
- الأرض الموعودة. «سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات.» (سفر التكوين: الإصحاح 15، الآية 18). يقول موشي ديان: 'إذا كنا نملك التوراة ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، فمن الواجب علينا أن نمتلك جميع الأراضي المنصوص عليها في التوراة'.⁴ ويقول موردخاي نيسان، أستاذ الدراسات الشرق أوسطية في الجامعة العبرية في القدس، "منذ بداية فجر التاريخ اليهودي، أقام الاتصال بأرض إسرائيل مبدأً وهو أن وجود غير اليهود في البلد هو من الناحية الأخلاقية والسياسية أمرٌ لا صلة له بالحق الوطني لليهود في استيطان الأرض وحيازتها... يصرح الكتاب المقدس بالحق اليهودي بغض النظر عن الوجود غير اليهودي. وفيما بعد بفترة طويلة، فصلّ حكماء الكهنة الوعد الأبويّ وبيّنوا المبدأ الآتي:... الإقامة في الأرض هي المقام الأول عند اليهود، وليست مقيدة

بِحَالٍ، فضلاً عن أن تلغى من قِبَل غالبية السكان غير اليهودية، في أي جزء محدد من الأرض. “ 5

الاحتمية التاريخية وحُطة الله للدهر. يرى المؤمنون بالنبوءات المستقاة من بعض نصوص أسفار العهدين القديم والجديد أن الله وضع حُطةً سوف يتحقق فيها الفصل الأخير من هذا الكون، والله - كما يعتقدون - قد وضع حُطته للكون وفقاً لعلاقته بإسرائيل. “فإسرائيل بسبب خطاياها ستخضع لتسلط أربع أمم، الواحدة تلو الأخرى، وعندما تكتمل أيام الأُميين سيصدر أحد ملوكهم قراراً بإعادة إعمار القدس. وبعد ذلك بتسعة وستين أسبوعاً سوف يعود المسيح إلى المدينة المقدسة لكن شعبه يرفض التصديق به. وفي الأسبوع السابعين، يحاول حاكم شرير القضاء على اليهود، لكن المسيح يعود ليهزمه ويجلس على عرش داود.”⁶ والأحداث الأخيرة في خطة الله هي كالآتي: (1) الحدث الرئيسي: الارتقاء (Rapture) حيث يظهر المسيح في الغيوم، فيصعد المؤمنون به إلى السماء: الأموات فالأحياء. وهؤلاء هم المؤمنون بالمسيح الذين وعد المسيح أن يعود فيظهر في الغيوم لكي يأخذهم إلى نفسه. (2) الحدث الرئيسي الثاني هو المحنة الكبرى (Tribulation) وهي فترة تمتد سبع سنوات يحكم أثناءها المسيح الدجال العالم من الهيكل في القدس، وتحدث في هذه الفترة آلامٌ ومعاناة ومآسي كثيرة. وفي آخر المحنة يأتي المسيح في مجده أوجلاله ويقود جيش القديسين والمؤمنين، ويهزم جيوش الشيطان: جيوش الشرّ والمسيح الدجال، في معركة مجيدو (Armageddon) في فلسطين قرب حيفا. (3) ثم بعد ذلك تبدأ الفترة الألفية (Millennium) وهي فترة ألف عام يحكم خلالها المسيح العالم من الهيكل حيث يقعد على العرش، ويسود العالم السلام والمودة.⁷ وإن كنت لا تعلم فاعلم أن المسيح لن ينزل النزول الثاني إلا إذا اجتمع اليهود في فلسطين، فوجوب اجتماعهم، كما يُزعم، أمرٌ يحتمه الكتاب المقدس قبل مجيء عيسى، الذي ينتظره الملايين من المؤمنين. وكلُّ ما من شأنه أن يعيق أو يعرقل نزول المسيح فليذهب إلى الجحيم.

إن موقع إسرائيل في خطة الله للدهر كموقع الرأس من الجسد، وجلّ الأحداث التي تجري في الشرق الأوسط يتم تفسيرها وقراءتها وفقاً لهذه النبوءات.⁸

لكن طبعاً هناك الكثيرون من رجال الدين المسيحيّ والباحثين والمفكرين في أمريكا وغيرها يعارضون بقوة هذه التخريصات والأكاذيب التي يروجها الأصوليون اليهود والصهاينة المسيحيّون.

من هؤلاء الدكتور ج. كالفن كين، الرئيس السابق لقسم الدراسات الدينية في جامعة سانت لورنس في نيويورك، حيث يقول: ”إن النصوص الكتابية التي ترد فيها هذه النبوءات المفترضة قليلة جداً، كما أن نظرةً فاحصة لها تدلّ على أنها إما غامضة جداً في دلالاتها وبالتالي غير مقنعة، أو أنها نبوءات لأحداث وقعت بالفعل بعد كتابتها بوقت قصير، أو أنها انتزعت من سياقها وأعطيت دلالاتٍ ليست واردة أبداً في ذلك السياق.“⁹

يعلق الدكتور فؤاد شعبان على هذا الكلام قائلاً: ”وهذا بالضبط هو ما نراه في مواعظ وكتابات الأصوليين الأمريكيين من مسيحيين ويهود حين يلوحون بالكتاب المقدس ويرددون هذه النصوص النبوية على مسامع الملايين من المؤمنين الذين لا يتسنى لهم التحقق من صحتها أو دقة تفسيرها. يصف الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي هذا السلوك بـ «هرطقة تشكّلت من القراءة الحرفية الاصطناعية لكلام منرّل، بهدف جعل الدين أداةً للسياسة، بإضفاء القدسية عليها... إنه مرض مميت يصيب نهاية القرن، وهو ما عرفته سابقاً باسم الأصولية.“¹⁰

إن التمسك بالقراءة الحرفية للكتاب المقدس ذو نتائج وخيمة على الشعب العربي عامة، والفلسطيني خاصة، من جميع النواحي: الدينية والإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. إن اليمينيين المتطرفين في الولايات المتحدة وأتباعهم عندما يرون كل هذه المذابح والجرائم التي تجري في فلسطين، لا تتحرك فيهم مشاعر الرحمة تجاه الضحايا، وإذا فتشت في قلوبهم فلن تجد فيها أثراً من الحزن أو الشفقة أو الحرارة التي توجد عادة عند سائر البشر لدى رؤيتهم لمثل تلك المشاهد الموحجة، التي تترك في الصدر حَزَازَةً، وفي القلب عُصَّةً. يقول الدكتور فؤاد شعبان: ”فلنتصوّر ماذا يدور بذهن المؤمن المسيحيّ في أمريكا من أتباع الكنائس المسيحية اليمينية عندما يشاهد فيلماً جميلاً مثل فيلم «أرض الله» يسرد فيه القسّ المعدادنيّ الشهير بيلي غراهام وُصفَ الأماكن المقدّسة في طول فلسطين وعرضها مستشهداً في كل منعطف بالنصوص المقدّسة التي تنبأت بما حدث ويحدث في إسرائيل والأراضي

الفلسطينية، ومؤكداً أن هذه أرضُ الله أعطاهما لشعبه المختار، وأن ما حدث هو معجزة تحققت بها إرادة الله. “ 11

إن المسيحية واليهودية قد تم استغلالهما استغلالاً بشعاً، لتحقيق أطماع وأهداف مستقبلية في فلسطين. وإن هذين الشريعتين السماويتين بريئتان كل البراءة من تلك الآراء والاعتقادات التي ألصقت بهما، من جزاء القراءة الحرفية والتصرفات التحريفية التي عبثت بهما أيما عبث.

يقول الأستاذ محمد فاروق الزين: ” بعد مرور قرابة ألفي عام على رحيل يوحنا، واستناداً على "رؤياه"، لا يزال المسيحيون الأصوليون في نصف الكرة الغربي مقتنعين مع أتباعهم بأن نشوء إسرائيل في فلسطين كان مقدمة حتمية لا بدّ منها لتحقيق المجيء الثاني ونهاية التاريخ، فالكثير من الأمريكيين -الذين كانوا في السابق معادين لليهودية بحجة أن اليهود رفضوا المسيح وقتلوه بزعمهم- تحوّلوا إلى أنصار متحمسين لليهود وإسرائيل نظراً للدور المفترض أن يلعبه اليهود في خطة المجيء الثاني وتحقق النبوءات. يمكن تلخيص العقليّة المسيحية الأصولية الغربية بإيجاز بالعبرة التالية: لا يمكن للمسيح أن يعود ما لم تكن هناك إسرائيل يمكنه العودة إليها. “ 12

¹ في كتابه "التلمود"، نقله روجيه جارودي في كتابه "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" ص 54. نشر دار الشروق - القاهرة، ط 1، 1998.

² من أجل صهيون، ص 81. نشر دار الفكر - دمشق 2003. وانظر أيضاً كلاماً مهماً بهذا الصدد في ص 123-131.

³ راجع قصة الهيكل في كتاب الدكتور حسن ظاظا "أبحاث في الفكر اليهودي" ص 45-54، نشر دار القلم - دمشق 1987.

⁴ نقله جارودي ص 41، عن صحيفة جيروساليم بوست، 10/ آب/ 1967.

⁵ نقله المفكر نعوم تشومسكي في كتابه "مثلث الموت" ص 444، نشر بلوتوبرس - لندن 1999. عن جيروزاليم بوست، كانون الثاني. 18، 1983.

⁶ من أجل صهيون، ص 321.

⁷ من أجل صهيون، ص 321.

⁸ على سبيل المثال، يرى الكاتب المتطرف هال ليندزي في كتابه "كوكب الأرض المنقرض العظيم" أن تأسيس دولة إسرائيل عام 1948 واستعادة مدينة القدس عام 1967 هما علامتان هامتان على اقتراب الساعة. انظر: من أجل صهيون، ص 350. وقف على أمثلة أخرى في ص 351 وما بعد.

⁹ من أجل صهيون، ص 322. باختصار وتصرف يسير.

¹⁰ من أجل صهيون، ص 315. وراجع فيه كلاماً مهماً للبابا شنودة في تكذيب هذه الادعاءات، ص 320.

¹¹ من أجل صهيون، ص 316.

¹² المسيحية والإسلام والاستشراق، ص 262، نشر دار الفكر - دمشق ط 3 2003.

